الحلقة الحادية والعشرون

عبدالله عبدالجبار

نجم هذه الحلقة هو عبدالله عبدالجبار.. الأديب المبدع، والناقد المفكر، والباحث المدهش أو «طائر العنقاء» المستحيل في أدب الجزيرة العربية..؟ أو «طائر الخرافة الذي حط على زمن النسيان».. كما وصفته الكاتبة الصحفية البارعة الأستاذة «ريمة الخميس»، الذي نفى نفسه - وهو في قمة عطائه - لعشر سنوات حتى حلىّ له المنفى والصمت الأبدي من حوله، ولولا القلة القليلة الفاضلة.. التي أحاطت به في سنوات اغترابه ووحدته تسانده وتحاوره وتمسح جبهته وتكفكف دمعه.. لكان في عداد الراحلين من سنين طويلة مضت، فكان طبيعياً أن يختار البعد عن سواهم في منفاه.. وأن يختار القطيعة مع غيرهم حتى بعد عودته - في أوائل عام ١٩٨٧م - ليبقى صامتاً معتزلاً.. بعيداً عن الجميع، لتمضي به الأيام والسنون.. إلى أن غدا عَلَم الفكر والثقافة الكبير الذي تعرفه الجامعات والمعاهد العليا، ويعرفه الأكاديميون والباحثون والدارسون وعلية المثقفين.. وكأنه «نكرة» في وطنه يسأل عنه حتى أبناء الأربعينات من أبناء جلدته وجيله ! أما من دونهم.. فهم لا يعرفون قليلاً أو كثيراً عنه..!

لقد بدأ هذا الأديب والمفكر (الجبار).. اسماً وفعلاً، حياته.. طالباً بالمعهد العلمي السعودي بمكة في أوائل الثلاثينات من القرن الميلادي الماضي.. فـ «خريجاً» من كلية دار العلوم القاهرية في أوائل الأربعينات منه.. فـمديراً» لمدرسة تحضير البعثات فـ «المعهد العلمي السعودي» في أواخرها، فـمراقباً عاماً للبعثات السعودية» بالقاهرة في أوائل الخمسينات.

ولكن كان في داخل هذا «المربي» الذي أوشك أن ينتهي إليه شيء آخر.. كان فيه منذ البداية كاتباً إصلاحياً يحمل جمرات الهم، وأديباً واقعياً يحمل نسمات الحلم، وقد اتخذ من مدرسة «الفن للحياة» مدرسة له.. نائياً وساخراً من مدرسة «الفن للفن» التي كانت تنادي بها «برناسية» القرن التاسع عشر. فالكتابة عنده ليست ترفاً أو حلية، وليست وجاهة أو جاهاً.. بل دعوة ملحة للحق والخير والجمال، وللحرية والنضال من أجل تقدم الأمة ووحدتها.. بمختلف أدوات التعبير ووسائله: مقالة أو قصة أو مسرحية.. أوصله مجموعها فيما بعد إلى رؤيته النقدية الفكرية الشاملة التي تضمنتها كتبه الكبرى الثلاث: «قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي»، و«التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية».. بجزئيه.

* * *

منذ البداية.. كان عبدالجبار يسير على طريق الرواد الأوائل من أمثال العواد، والصبان، والآشي، والعرب، والعامودي.. ممن كانوا يتهافتون ويتناوبون على قراءة كتب ومجلات مصر والمهجر،

لتقوده تلك القراءات إلى جانب دراسته المعهدية إلى ينابيع الفكر والثقافة والأدب.. إلى مناجم الماس ومغارات اللؤلؤ والذهب والسعير، وعندما استقام عوده أديباً وكاتباً في القاهرة.. سلم صديقه – شيخنا العزيز حمد الجاسر – ربما أولى قصصه وقد كانت بعنوان «ساعي البريد» لنشرها في مجلة «اليمامة» الوليدة آنذاك.. إلا أنها أثارت زوبعة على غير المتوقع، فمنع الرقيب استكمال نشر بقيتها في الأعداد التالية.. فلم يدر أحد من جيلنا عن أخبار تلك «القصة» لولا ما ذكره شيخنا (الجاسر) عنها في ذلك الملف الذي أصدرته صحيفة (الجزيرة) عن (عبدالجبار) قبل سنوات، ولكن يبدو أن منع الرقيب لقصة عن «ساعي بريد» قد أدهشه وأفزعه.. فدفعه إلى البعد بإبداعاته عن الصحف والمجلات والصحافة – المحلية – إجمالاً، إلى «الكتاب».. وعالمه في مصر، لينشر ما يشاء.. كيفما يريد.. حيث نشر في عام ١٩٥٤م قصة «أمي»، وهي وإن كانت ليست في ضخامة رواية «الأم» للكاتب الروسي العظيم ماكسيم جوركي.. إلا أن خاتمتها كانت تحمل ذلك النبض القومي المزعج لبعض الناس، فبعد أن استمع بطل القصة «صالح» إلى أمه وهي تروي له كامل حكايتها وحكايته ومعانتهما الطويلة.. في الحياة معاً، كتب القصة وعنونها بعنوان «أمي».. ثم أهداها إليها، وهو يقول لها: «ولكنك يا أمي نسيت قصة أخرى أهم من هذه.. هي قصة أبي».. الذي يتضح من سياق القصة أنه كان أحد شهداء المواجهات الصهيونية العربية المبكرة في العشرينات أو ما بعدها.. ليطلب من زوجته ومن فوره أن تهيئ له حقيبة السفر

لأنه راحل غداً إلى «فلسطين» ليؤلف «قصة.. قصة جديدة، ولكني سأكتبها هذه المرة بدماء اليهود».. إذ «لا يشفي الدم إلا الدم» كما قالت له أمه، ثم أتبع تلك القصة في نفس العام.. بـ «تمثيلية» منشورة غير مذاعة، هي: «العم سحتوت».. التي تظل رغم المقدمة الطويلة التي صَدّرها بها في شرح الفوارق بين «التمثيلية» الإذاعية و«المسرحية».. أقرب إلى العمل المسرحي منها إلى العمل الإذاعي، فشخصية «العم سحتوت» المليونير البخيل في «المعلا» الذي كان يتلقى الصدقات على «باب السلام» في الحرم المكي.. تذكّر على نحو أو آخر بشخصية «شيلوخ» بخيل «شكسبير» المرابي في مسرحية «تاجر البندقية».. إلا أنهما بخيلان في زمانين ومكانين مختلفين، وبيئتين وثقافتين مختلفتين.. وإن لقي كلاهما مصيره المحتوم والمتشابه في النهاية.

فإذا كانت تمثيلية أو مسرحية «العم سحتوت» قد مرت بهدوء دون أن تثير أي قدر من الزوابع في وجه كاتبها.. رغم حدة إهدائها القريب من موضوعها، والبعيد عنه في ذات الوقت، والذي يقول «إلى الذين لايزالون سادرين في الظلام»!! فإن خاطراً يلح عليَّ.. بأنها كانت وفي أغلب الأحوال عملاً تجريبياً من قِبَل كاتبها الأستاذ عبدالجبار لقياس نسب النجاح بين المتلقين لمثل هذه الأعمال، والتعرف على ردود أفعالهم المحتملة.. تمهيداً لعمله المسرحي (الصريح) التالي، الذي صدر بعد عام أو عامين من صدور «العم سحتوت».. والذي فجر في وجهه أول وأعنف الزوابع في حياته، وأعني به «مسرحية: الشياطين الخرس» التي حظيت بـ «مقدمتين»:

أولاهما بعنوان «تصدير» بقلم الأستاذ محمد ناجي رئيس رابطة الأدب الحديث التي كان الأستاذ عبدالجبار – نفسه – نائباً لرئيسها، والتي كانت تعقد في داره بعض جلساتها واجتماعاتها.. حيث يقول في ختامه بنغمة حب عالية البهجة والرنين: «وبعد أيها الكاتب الصديق لقد عشت في مسرحيتك واندمجت في شخصيات مجلسك ساعة أو ساعات كنت أعلو وأنخفض.. في متعة هي كالموج، لكنها سارية تجري بنا حيث أردت، ولعل القارئ الكريم يتمتع بكلماتك وحوارك.. مثلما مُتعنا»، وثانيتهما بقلم «العواد» وبعنوان «هذه المسرحية».. حيث روي فيها كيف تبلورت فكرة نشر هذا الحوار أو هذه «المسرحية» عندما قال: «في ليلة من ليالي القاهرة كنا نسمر عند صديقنا الأستاذ عبدالله عبدالجبار في داره المطلة على النيل، وكنا ستة من الأدباء لم يحو المجلس غيرنا.. ودار الحديث عن الأدب – طبعاً –، وكان صديقنا الفاضل صاحب الدار قد أعد حواراً رشيقاً، يدور بين بضعة أفراد، افترض فيهم أنهم يمثلون هيئة من الهيئات، التي أوكلت إليها بعض الشؤون العامة، وقد صور الحوار عقلية تلك الجماعة ونفسيتها.. بأسلوب ساخر، فاقترحت عليه أن يطبع الحوار وينشره بعد أن يراجع بعض مواقفه، بحيث تكون أكثر دلالة على واقع الهيئات التي يُحشر فيها هذا الصنف من عباد الله».. ثم يسترسل العواد في مقدمته بشيء من الدهاء المكشوف قائلاً: «والمجلس الذي يصف الأستاذ عبدالله إحدى جلساته وهو الذي لا ندري أين يقع من أرض الله المتأخرة: في دينها. وخلقها، وتفكيرها.. هو أحد هذه المجالس الممسوخة،

التي لا تكترث للضمير ولا للعدل الاجتماعي.. وإنما هي ملهاة مخزية تسود صحيفة الأمم.

«وينتظم هذا المجلس المسوخ.. أعضاء، عدتهم سبعة كعدة أهل الكهف، ومنهم رئيسهم.. ويضاف إليهم خادم وأمين سر (سكرتير).

«فأما أحد هؤلاء الأعضاء السبعة واسمه في الحوار «ميمون» فرجل أجوف إمّعة متنفج تتكشف فيه هذه الخصال الثلاث، من لفظة واحدة يرددها مرتين أو ثلاثة أو أربعاً، حسبما يعن له، ويؤمّن بها على كل ما يقال في المجلس، وإن تناقض مقال ومقال. وهو يلفظها معبراً عن نفسه بصيغة الجمع. فيقول دائماً بعد كل رأي: «موافقون.. موافقون».. ويقول روحه من وراء هذه الألفاظ: «نحن جميعاً منافقون»، وتقول القاعة والكراسي: «اللهم اشهد أنهم منافقون وخائنون»..!!

.. وهكذا مضت هذه المقدمة الثانية للمسرحية على هذا النحو الذي زاد من طينة ردة الفعل عليها.. بلّة.

* * *

لقد تميزت أعمال الأستاذ عبدالله عبدالجبار الإبداعية عموماً بنكهتها السياسية الخفيفة حيناً والعالية النبرة حيناً آخر.. إلا أنها توقفت بعد ذلك وإلى الأبد وكأن أخدوداً قدرياً قد قطع عليها طريق استمرارها وتدفقها.. ومع ذلك فهي لا تمثل أهم وأعظم أعماله التي صنعت «قيمته» و«قمته» من جانب، وأزمته

وملحمته على الجانب الآخر.. حتى ليصح القول بأن أفضل عنوان يمكن أن يوضع لـ «ترجمة» حياته.. هو ذات العنوان الذي اختاره - مع الفارق - السياسي البريطاني الأشهر «ونستون تشرشل» للجزء السادس والأخير من «مذكراته» عن الحرب العالمية الثانية: «النصر والمأساة».. فقد حققت دراساته الكبرى الثلاث: «قصة الأدب» و«التيارات الأدبية الحديثة.. في قلب الجزيرة العربية» بجزئيه: المطبوع عن «الشعر».. والمنسوخ عن «النثر».. والتي أصدرها في أعوام ١٩٥٨م و١٩٥٩م و١٩٦٠م على التوالي، تلك «القيمة» التي يسعى إليها كل مفكر وكاتب وأديب، وتلك «القمة» التي يحرص على أن يطالها كل واحد منهم، وذلك «النصر» الذي يروم إليه كل صاحب رأي ورؤية بينهم.. إلا أن عناصر التفوق هذه والتي نالها عن استحقاق وجدارة.. كانت تحفر له في ذات الوقت دروب أزمته، وهزيمته، وانكساره.. وتلك هي «الملهاة» أو المأساة في حياة عبدالجبار..؟

فما الذي قاله الأستاذ عبدالله عبدالجبار في تلك الكتب أو الدراسات الثلاث حتى أهاج عليه كل تلك العواصف والأعاصير.. لتتهاوى معها في النهاية كل كواكب مجده، وإلى حد محاصرته ونبذه.. في داخل الوطن وبين المتنفذين من بنيه على الأخص..؟

أما في خارج الوطن.. فقد استُقبل ذلك الذي كتبه وقاله بحفاوة قلّ نظيرها، وترحاب وإعجاب لا يخلو من الدهشة والعجب في خروج كاتب عربي من غرب الجزيرة العربية، بكل هذه القدرة

والجرأة والرؤية المنهجية الواسعة والشاملة.. وبكل هذا الإبداع والإمتاع الذي سيطر به على جفاف الدراسات والأبحاث حتى جعل منها وكأنها قطع أدبية خالصة، يتخطف قراءتها جمهرة المثقفين.. كخاصتهم من الباحثين والدارسين الأكاديميين.

لكأني بالأستاذ عبدالجبار أراد في كتابه الأول.. من خلال رحلة غوصه التاريخية العميقة والبعيدة إلى العصر الجاهلي.. العودة من تلك الرحلة الأدبية الشاقة بـ «اكتشاف»: «عبقرية الزمان» في جزيرة العرب.. أو تجديدها أو التذكير بها، تماماً وكما فعل بعد عقدين من الزمان صنوه الدكتور جمال حمدان.. عندما غاص في بطون الأطالس وكتب الجغرافيا، وعبر سهولها وجبالها ووديانها بحثاً عن «عبقرية المكان» في «شخصية مصر».

أما في كتابه «الثاني» الأعظم والأهم: «التيارات الأدبية الحديثة»، والذي لاح لبعض المتنفذين بأنه أخطأ الطريق منذ البداية.. فدخل من بوابات السياسة ولم يدخل من بوابات الأدب، بدءاً من قبول صاحبه بـ «دعوة» الجامعة العربية له في تلك المرحلة من سنوات الخمسينات.. لـ «التدريس» في «معهد الدراسات العربية» الذي أنشأته الجامعة بـ «القاهرة» ليعرِّف طلبته والدارسين به بـ «آداب الأقطار العربية، وفنونها الشعرية والنثرية وجغرافيتها وتاريخها القطري المجهول بالنسبة للكثيرين منهم.. في ظل نهضة عربية جديدة تدعو لوحدة الوطن العربي».. وانتهاءً بتلك المحاضرات القيِّمة التي بدأها قائلاً وهو يتحدث عن

أدب الجزيرة العربية: «نحن إذن أمام أدب مجهول يشبه قارة مجهولة، وعلينا قبل أن نستخرج من ذخائرها وكنوزها أن ندل على معالمها العامة».. فكتب مائة وثلاثين صفحة، قدم من خلالها دراسة شاملة - وليست موجزة - عن جغرافية الجزيرة العربية وتاريخها الاجتماعي والسياسي منذ العهد العباسي.. إلى العصر الحديث، حتى ليمكن القول بأن تلك الصفحات تكفي.. لأن تكون كتاباً مستقلاً موجزاً عن تاريخ الجزيرة العربية، وأحسب أن هذا القسم الأول من الكتاب وما قاله فيه.. كان هو المحرك الأول والأهم لتلك العواصف والأعاصير التي هاجت عليه..؟!

على أن قبوله بتلك الدعوة، وإلقائه لتلك المحاضرات.. حتى وإن بدا وكأنه استجابة لدوافعه القومية.. إلا أن دوافعه الوطنية الخالصة لم تغب عنها، بل وتكشف عنها وتؤكدها نصاً «الكلمة الأخيرة» التي سطرها في ختام هذا الجزء الأول من هذه الدراسة الباذخة والرائعة التي خصصها للحديث عن الشعر والشعراء في الجزيرة العربية.. عندما قال: «في قلب الجزيرة إذن.. شعر رائع، وشعراء يقفون جنباً إلى جنب مع الشعراء المجيدين في العصر الحديث.. ولكنها العزلة. عزلة الشعب العربي في سائر البلاد العربية.. عن آدابهم هي السبب في عدم نيلهم المكانة اللائقة بهم.

و«نحن نأمل أن تتكفل دراستنا هذه بتغيير آراء النقاد الذين كتبوا عن أدبنا خلال دراستهم للأدب العربي الحديث، أو عن طريق مقدماتهم لبعض الدواوين، ولم يكن بين أيديهم منه إلا نماذج ضئيلة لا يمكن أن تعطي فكرة دقيقة صحيحة».

لقد وصلت رسالة الكتاب إلى أدباء وشعراء مصر والشام والعراق.. لكنها لم تصل إلى أبناء قومه، فقد دخل الكتاب.. إلى «سرداب» داخل الوطن، وإن أدى كامل دوره في رسالة «التعريف» بأدباء الجزيرة وشعرائها عند أهل مصر والشام والعراق.. حتى أصبح الكتاب وكما قال تلميذه الدكتور عباس طاشكندي: «بمثابة قاسم استشهادي مشترك في جميع الأعمال التي تناولت بالبحث والدراسة تطور الحياة الفكرية والثقافية في المملكة العربية السعودية»، ولتثني عليه حفيدة تلمذته الأستاذة ريمة الخميس.. بقولها: «التيارات الأدبية الحديثة في قلب الجزيرة العربية للرائد عبدالله عبدالجبار.. سفر: موقعه في القيمة إلى جوار أمهات الأسفار في العصر العباسي. بأصالة المنهج فيه، وبحجم الجهد الذي تنوء به مؤسسة علمية أو ثقافية كاملة»..!!

* * *

أما ما قاله في كتابه «الثالث».. وهو الجزء الثاني من «التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية» الخاص بـ «النثر»، الذي لم يطبع في حينه (طبع مؤخراً) وبقي منسوخاً على «الآلة الكاتبة».. يتداوله الباحثون، وطلبة الدراسات العليا بـ«تصويره»، فقد أضاف إلى قيمته.. قيمة، وإلى نزاهته البحثية وموضوعيته.. أبعاداً غير تلك التي حققها في كتابيه السابقين، فإلى جانب الدراسة الفاحصة والمتأنية التي قدمها عن ميلاد (النثر) الحديث في قلب الجزيرة العربية ونشأته وتطوره التاريخي، والمؤثرات التي صبغت مراحله بألوانها.. من «المهجر» إلى «الثورة العربية» إلى «الأزهر»، وصولاً

إلى التيارات الأدبية الحديثة التي أخذت تتقاسمه: من الكلاسيكية، إلى الرومانسية، إلى الواقعية.. فقد أفرد فيه الحديث عن بعض الرموز الحقيقية في أدب الجزيرة وفكرها آنذاك.. عن «العواد» وحريته، و«الشحاتة» وثوريته، و«الجاسر» وشجاعته، و«الفلالي» وقوميته التي عاد الأستاذ عبدالجبار لتلخيصها في ختام هذا الكتاب: «وبذلك تتلخص قوميتنا في أمرين لا ثالث لهما: هما الدين واللغة.. فمن تكلم بلغتها كان منها أياً كان دينه، ومن دان بدينها كان منها أياً كان جنسه».. ثم «القصيمي» الذي خصه بما يزيد عن ثلث صفحات الكتاب.. حيث تتبع نشأته ودراسته وبيئته وأزهريته وظروفه التي عاشها، والمراحل التي مر بها قلمه من تقديس «التابوه» القائم إلى التمرد عليه.. حتى يمكن القول بأن ما كتبه عبدالجبار عن «القصيمي» يظل هو الأفضل والأشمل والأدق بين كل ما كُتب عن «القصيمي» في حياته وبعد مماته، فكان ذلك مما ضاعف من سرعة العواصف المتجهة نحوه. فقد أقام عليه الدنيا.. ولم يقعدها.

لكن هذا الكتاب والذي دخل إلى (السرداب) كسابقه أيضاً، أصبح مع جزئه الأول واحداً من أهم أربعة كتب في تاريخنا الأدبي: فكراً وإبداعاً.. فيما أحسب وأعرف: خواطر مصرحة.. للعواد، والتيارات الأدبية.. لعبدالجبار، وهذه هي الأغلال.. للقصيمي، وأخيراً هذه الرواية.. الصغيرة الحجم والبسيطة البناء «الكراديب» لكاتبها الدكتور تركي الحمد..؟

* * *

لقد توقف الأستاذ تماماً عن الكتابة والنشر بعد انطواء مرحلة معهد الدراسات العربية وما كان منها وفيها، فلم يظهر له شيء.. إلا في عام ١٩٦٥م مع رحلته إلى «بغداد» لحضور مؤتمر الأدباء العرب المنعقد فيها بدعوة من صديقيه الأديبين العراقيين: الدكتور يوسف عز الدين، والأستاذ هلال ناجي.. حيث قدم بحثاً عن «الغزو الفكري في العالم العربي»، ثم عاد من «بغداد».. إلى حياته في القاهرة بين «رابطة الأدب الحديث» وأعضائها و(أحديته) الشهيرة، التي كانت تضم ألمع نجوم الأدب والفكر في مصر وخارجها.. لتأتيه السياسة بتقلباتها إلى باب (شقته) في القاهرة على حين غرة، وبما لم يخطر له على بال، عندما اقتحم زوار الفجر عليه منزله ذات ليلة من ليالي صيف عام ١٩٦٦م.. ليقتادوه إلى المعتقل، ليجد أمامه أعضاء رابطة الأدب الحديث وقد سبقوه إليه.. حيث رحب به أحدهم وبصورة عفوية.. قائلاً: أهلاً بـ «الأستاذ»!! فكان ذلك مدعاة لسجانيه.. لأن يضعوه في سجن انفرادي.. باعتباره (كبيرهم)!!، ليجد نفسه وهو القومي العربي المدافع والمنافح عن القومية.. وحيداً في زنزانة في بلد القومية العربية الأول: الجمهورية العربية المتحدة.. لا «ابن» يسأل عنه، ولا «زوجة» تنتظره. فقد مرت الأيام، وضاع العمر.. كل العمر في سبيل الفكر والقلم، وقضايا الوطن وإنسانه.

وإذا كان قد أُخرج من زنزانته بعد ستة أشهر أو أقل.. عندما علمت القيادة العليا بسجنه، إلا أن نفسه كانت قد فاضت بأحزانها، فكان أن قبل وعلى الفور.. بـ «فكرة» الذهاب إلى «لندن»

عندما عُرضت عليه.. فلم يعد لديه ما يخشى فراقه: لا في وطنه الأول (الحجاز).. ولا في وطنه الثاني (مصر)..!! ليمضي هناك عشر سنوات.. لم ير له أحد شيئاً خلالها غير تلك المحاضرة التي ألقاها في بغداد.. عن (الغزو الفكري في العالم العربي).. والتي احتفت جريدة (الرياض) بنشرها على صفحاتها، قبل صدورها ضمن مطبوعات (المكتبة الصغيرة) عام ١٩٧٤م، فلم يفته رغم أحزان قلبه وجراحه النفسية الغائرة.. أن يكتب في آخر مقدمته الصغيرة لها قائلاً: «كم أنا سعيد أن يصدر هذا الكتاب بعد انتفاضة رمضان (أكتوبر) التي ردت لكبرياء الجرح النازف شيئاً من الكرامة والاعتبار».

* * *

في اعتزاله، وبعد عودته من منفاه الاختياري عام ١٩٨٧.. استطاع نفر من تلاميذه ومحبيه من أساتذة جامعة الملك عبدالعزيز أن يفوزوا بموافقته للعمل «مستشاراً ثقافياً» غير متفرغ للجامعة، فكان هذا الضوء الأخضر الكليل.. فاتحة لأن تستقطبه (شركة تهامة) عبر تلميذه البار وصديقه الحميم الأستاذ محمد سعيد طيب.. للعمل مستشاراً بقسم النشر الأدبي الثقافي الذي استحدثته - آنذاك - بين إداراتها، فكان أن استطاعت الكاتبة الشابة الأستاذة (انتصار العقيل).. أن تستدرجه بعواطف (ابنة) نحو (أبيها) لـ «كتابة» مقدمة لأول وأجمل كتبها والذي تولت شركة تهامة نشره عام ١٩٨٩م (موانئ بلا أرصفة)، فاستجاب.. وكتب لها مقدمة ضافية رائعة، ذكرت قراءه وعارفيه بـ «نَفَسه» القديم والجميل، وذلك الألق والدفء والعمق.. الذي عُرف به قلمه، وكتب

به كتابه العصي على النسيان (التيارات الأدبية في قلب الجزيرة العربية)، ثم لم يكتب شيئاً بعدها.. إلا فيما ندر، أما اللقاءات والحوارات والأحاديث الصحفية.. فقد ظل على قطيعة معها منذ أيام سجنه.. رغم مطاردة رؤساء تحرير الصحف والمجلات له، وكلهم تلاميذ ومحبون له.. فلم تفز بـ«اللقاء» والحوار معه إلا مجلة (الإعلام والاتصال) وبـ «شروطه» التي حددها قبل وبعد النشر - إبان رئاسة تحرير كاتب هذه السطور لها - ، فكانت (قصاقيص) ذلك الحوار - غير المنشورة - والتي لمعت خلال ساعاته الثلاث.. أجمل وأمتع من ذلك الذي تم الاتفاق على نشره.!!

قبل ذلك أو بعده.. شَرُفَ أحد تلامذته - من طلبة تحضير البعثات - الذين غدوا كباراً بمواقعهم ونفوذهم وسلطاتهم.. بزيارته في منزله بحي الأمير فواز النائي في «جدة»، فهاله حال المنزل.. وتواضع موجوداته وأثاثه، فكان أن بعث إليه بعد أيام من تلك الزيارة بـ «رسالة» حب واعتذار يشكره فيها على استقباله له، وهو يسأله (الصفح).. عن أي تقصير قد يكون بدر منه دون قصد نحو أستاذه ومعلمه الأول.. وقد أرفق بتلك الرسالة التي أجمع من قرأوها على أنها قطعة أدبية خالصة بأكثر من كونها رسالة من تلميذ مخلص مقصر لـ (معلمه) المحبوب.. شيكاً بمبلغ خمسة ملايين ريال لأمر أستاذه (عبدالله عبدالجبار)، فكان أن رد على رسالة زائره بما تستحقه من التقدير والإعزاز، ثم أعاد رقعة الشيك إلى مظروفها.. ليحشرها بين أحد أرفف كتب مكتبته.. التي لا يعرف أحد عددها من كثرتها، ثم.. نسيه تماماً..!!

* * *

في آخر سنوات ليله الطويل.. وشيخوخته التي أخذت تضغط عليه بأمراضها ومتاعبها وقد تخطى الثمانين حولاً وقارب التسعين، كان يأخذ قراره الأخير بـ «العودة» إلى (مكته) حاضرة (عبقرية الزمان) التي اكتشفها.. ليكون إلى جوار كعبتها المشرفة إذا جاءت ساعة الرحيل، لتهتز بعد عام أو أكثر أسلاك الهاتف في منزله لتعلنه وتهنئه باختياره (شخصية العام) في مهرجان الجنادرية للثقافة والتراث لعام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م وسط دهشة وإعجاب وسعادة المثقفين جميعاً.. لهذا التوفيق الذي صاحب أولى سنوات عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز.. الأب الروحي للمهرجان، ورائده وراعيه، لتشهد قاعة الملك فيصل للمؤتمرات بالرياض في شهر المحرم من العام التالي – فبراير ٢٠٠٦م – حفل تسليمه وسام «شخصية العام» وسط حشود سعيدة من المثقفين: أدباء وكتاباً وشعراء وصحفيين وإعلاميين، فقد كان اختياره حتماً.. «تقديراً» لدوره واعتزازاً بما أنجزه، وإن جاء متأخراً.. و«إنصافاً» لمكانة يستحقها – دون منازع – بين أجيال الرواد.. وربما «اعتذاراً» عن نقيصة الوقوع في تجاوزه ونسيانه طوال الثلاثين.. إلى الأربعين سنة الماضية، وإذا كانت شيخوخته لم تمكنه من السفر إلى الرياض، والمثول إلى قاعة الاحتفالات في تلك الليلة وقد غصت بنجوم الأدب والفكر والإعلام عربياً ومحلياً.. فأناب عنه تلميذه الشاعر الأستاذ فاروق بنجر لاستلام (وسام شخصية العام)، فإن كوكبة المتحدثين على منصة القاعة.. من الأكاديميين والباحثين والكتاب، قد أثروا

تلك الليلة وأغنوها.. حتى جعلوا من غيابه حضوراً ساطعاً، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة من صفحات حياته وفكره.. إلا وقدموها لحضور القاعة ولآلاف المشاهدين الذين كانوا يتابعون نقل وقائع تلك الليلة على الهواء مباشرة، ليموت الأستاذ عبدالجبار بعد ليلة عرسه تلك.. بخمس سنوات في الثامن من إبريل من عام ٢٠١١م.. محاطاً بأبناء أخته. قرير العين.. بأصدقائه الخلص، الذين ظلوا إلى جواره.. حتى أسلم الروح.

* * *

ما أعظم الشبه وأعرضه.. بين عبدالله عبدالجبار، وأديب أدباء فرنسا في القرن التاسع عشر الشاعر والكاتب الروائي والمسرحي (فيكتور هوجو) صاحب «البؤساء» و«أحدب نوتردام».. في اختلافهما، وفي سجنهما، وفي مدد نفيهما الإجبارية عند هوجو والاختيارية عند عبدالجبار، ثم في هذا المجد الذي آل إليه كل منهما.. وفي صفحات الخلود التي فتحت ذراعيها لهما في النهاية، فلم يكن لـ «الخلود» الفكري والأدبي معنىً.. بدونهما!